مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

مَكَارِمُ الأَخْلَاْقِ عِنْدَ الإِمَاْمِ الرِّضَا ﷺ دِرَاْسَةٌ بَلَاْغِيَّةٌ تَحْلِيْلِيَّةٌ

فاديا مُحَمَّد سليمان [١]

١ جامعة طرطوس / كُلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة / قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛

fadiasulaiman618@gmail.com

دكتوراه في اللغة العربية / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٤/٥/٢٣	٢٠٢٤/٧/١٤	٢٠٢٤/٩/٣٠

المجلـد (١٩) العـدد (٣١)
رَبِيْع الأَوَّل ١٤٤٦هـ . أيْلُول ٢٠٢٤ م

DOI:
10.55568/t.v19i31.77-96

CC BY NC

مُلَخَّصُ البحْث

يتناول البحث بلاغة الإمام الرضا ﷺ من خلال الوقوف على جماليَّات الخطاب وبلاغة القول في أقوال الإمام وخطبه ﷺ، وذلك وفق دراسة نصِّيَّة لتلك التراكيب والجمل التي حملت معانيه الشريفة ومراميه السامية، فجاء المبحث الأوَّل نظريًّا؛ إذ وقفنا فيه عند محطَّات من مكارم الأخلاق في حياة الإمام الرضا ﷺ وبعض المفهومات النظريَّة التي شكَّلت أساس الدراسة التطبيقيَّة، أمَّا المبحث الثاني فكان تطبيقيًّا؛ إذ حاول البحث استنطاق النصوص بلاغيًّا وجماليًّا في محاولة جادّة للوقوف على أساليب البلاغة العربيَّة في نصوصه الخالدة وأقواله المأثورة.

استعان البحث بالمنهج التحليليّ الوصفيّ، فتناول الأقوال والخطب وبيّن معانيها القريبة محاولاً إدراك المقاصد من ورائها، مسلِّطًا الضوء على ما فيها من أساليب بلاغيَّة ولغويَّة.

الكلمات المفتاحيَّة : مكارم الأخلاق، الإمام الرضا ﷺ، دراسة بلاغيَّة تحليليَّة .

High Morals of Imam Al-Ridha (peace be upon him) (Analytical Rhetorical Study)

Fadia Muhammad Suleiman [1]

1 University of Tartous / Faculty of Arts and Human Sciences/ Department of Arabic Language, Syria;

fadiasulaiman618@gmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
23/5/2024	14/7/2024	30/9/2024

DOI: 10.55568/t.v19i31.77-96

Volume (**19**) Rabi'a Alawwal 1446 AH.
Issue (**31**) September 2024 AD

Abstract

This study deals with the eloquence of Imam al-Ridha examining the aesthetics of his discourse and the eloquence of his sayings and sermons through a textual analysis of the structures and sentences that conveyed noble meanings and lofty objective. The first chapter represents the theoretical part of the study : noble character traits of the Imam (peace be upon him), and some of the theoretical concepts that formed the foundation for the applied study. The second chapter, however, was practical, as the research endeavored to analyze the texts rhetorically and aesthetically in a serious attempt to understand the methods of Arabic rhetoric in immortal texts and timeless sayings of the Imam.

The study employs a descriptive analytical approach to examine the sayings and sermons, elucidating their immediate meanings while attempting to grasp the underlying intentions. It sheds light on the rhetorical and linguistic devices employed therein.

Keywords: good morals, Imam Al-Ridha (peace be upon him), rhetorical analytical study

مقدِّمة:

تسعى هذه الدراسة إلى قراءة مختارات من أقوال وخطب الإمام الرضا ﷺ، وفقاً لمعطيات علم البلاغة بفروعه (البيان والبديع والمعاني) وما يضفيه على الكلام من رونق وجمال.

اعتمد البحث المنهج التحليليّ الوصفيّ، وقد بدأ البحث بمقدِّمة، ليأتي بعدها المبحث الأوَّل مِهادًا نظريًّا وفيه نظرات من حياة الإمام الرضا ﷺ؛ وذلك من خلال محطَّات مختلفة تدلُّ على أخلاقه الكريمة وسيرته العابقة بالحكمة والعلم والعمل، وبعد ذلك يأتي المبحث الثاني تطبيقيًّا؛ إذ يتناول شذرات من أقواله البليغة وحكمه الرفيعة، فيقف عند ما فيها من جمال اللُّغة وبهاء الأسلوب ودقَّة المعنى وبلوغ القصد. لينتهي البحث بخاتمة حملت النتائج التي توصَّل إليها الباحث في هذه الدراسة.

المبحث الأوَّل: الإمام الرضا ﷺ:

هو عليّ بن موسى بن جعفر ﷺ،[١] تنوّعت ألقابه؛ ومنها: الرضا،[٢] والمتداول أيضاً عالم آل مُحَمَّد ﷺ، فقد ذُكر عن الإمام الكاظم ﷺ أنَّه قال لأبنائه: "هذا أخوكم عليّ بن موسى عالم آل مُحَمَّد".[٣] ويُعرف بالإمام الرؤوف، حيث خاطبه الإمام الجواد ﷺ في زيارته: "السَّلَامُ عَلَى الْإِمَامِ الرؤوف."[٤]

وقد ورد له لقب أيضاً ألا وهو الزّكيّ، والرضيّ، والوليّ، والوفيّ، والفاضل، والصابر، ونور الهدى، وسِراج الله[٥].

فهو عليّ بن موسى بن جعفر بن مُحَمَّد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب وأمّه فاطمة الزَّهراء بنت النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ. والده: الإمام موسى الكاظم ﷺ، جدّه: الإمام جعفر الصادق ﷺ.[٦]

صفاته الخُلْقية: كان الإمام الرضا ﷺ مثالاً وقدوة في الأخلاق والسيرة العطرة، كما اتَّصف بمكارم الأخلاق، ولاسيَّما: الزهد والكرم، العبادة والتقوى، الإحسان والعطف، العلم والمعرفة.

سيرته العلميَّة: ذُكِر أنَّ الإمام الرضا ﷺ كان جالساً في المدينة تحديدًا في الروضة النَّبويَّة، ويقوم بالإجابة عن الأسئلة التي يطرحها العلماء عند عجزهم عن الإجابة،[٧] وفيما بعد حضر في مدينة مرو فأجاب على عدد كبير ممَّا تشابه وتساءل عليه الغالبيَّة، وذلك عن طريق المناظرات التي تمَّ نظمها في ذلك الوقت، وعلاوة على ذلك فقد أقام الإمام الرضا ﷺ مجلسًا علميًّا في مسجد مرو، إلَّا أنَّ المأمون عندما خبر بهذا الأمر طلب إبعاد الخلق عنه، وقام بتعطيل الدرس الذي يؤدِّيه الإمام ﷺ، فقام الإمام الرضا ﷺ بالدعاء على المأمون جرَّاء ما فعله.[٨]

---

١ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي. عيون أخبار الرضا، تحقيق. حسين الأعلمي، ج١ / ط١ (طهران – إيران: المطبعة الحيدرية، ١٢٧٥هـ)، ٢٢.

٢ الإربلي. كشف الغمة، تحقيق. جعفر السبحاني التبريزي، ج٣ (طهران – إيران: دار الطباعة كربلائي محمد حسين الطهراني، ١٨٧٧)، ٥٣، ٧٨.

٣ الطبرسي، الفضل بن الحسن. إعلام الورى بأعلام الهدى، ط١ / ج١ (طهران – إيران: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، ١٤١٧هـ)، ٦٤.

٤ المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار، تحقيق. محمد مهدي الخرسان و إبراهيم الميانجي و محمد باقر البهبودي، ط٣ / ج٩٩ (إيران – طهران: مؤسسة دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٣هـ)، ٥٥.

٥ الإربلي، كشف الغمة، ٥٣، ٧٨.

٦ المفيد، محمد بن محمد بن نعمان العكبري. الإرشاد، ط١/ ج٢ (إيران – طهران: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٢)، ٤٤٧.

٧ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ٦٤.

٨ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ١٧٢.

مكارم الأخلاق في سيرة الإمام الرضا ﷺ:

جاء في سيرة الإمام الرضا ﷺ أنَّه عندما كان يسمع صوت الأذان في أوقات حضوره في مناظرة تجمع كبار العلماء في شتَّى الأديان والفرق، حيث كان لا يكترث لجلسة المناظرة، وإنَّما يقوم بالإجابة على مطالب الحاضرين لاستكمال المناظرة: نصلّي ونعود.[٩]

كذلك جاء في الأخبار عن قيامه بصلاة التهجُّد، فضلًا عن إحياء اللَّيل وذلك عند قيامه بالعبادات وذكره الله جل جلاله،[١٠] وعندما قام الإمام الرضا ﷺ بتقدمة قميصه لدعبل الخزاعيّ هديَّة، قال له:

"احتفظ بهذا القميص، فقد صلَّيت فيه ألف ليلة ألف ركعة،[١١] وختمت فيه القرآن ألف ختمة، وذكرت له سجدات طويلة أيضاً"[١٢].

هناك نماذج ذكرت حول السلوك الطيِّب للإمام ومعاشرته مع الآخرين، منها مجالسته مع العبيد والخدم وتناوله الطعام معهم على مائدة واحدة حتَّى بعد ولاية عهده.[١٣]

حصل الإمام عليّ بن موسى الرضا ﷺ على مكانة مرموقة عند الشيعة الإماميَّة، حيث كان هو ثامن الأئمَّة، كما كانت له مكانة عظيمة عند من لم يخطر في باله إمامته، من أعلام المذاهب الإسلاميَّة الأخرى، وقد ظهر ذلك جليًّا واضحًا في كلماتهم التي احتفظوا بها في مناهجهم عنه:

قال ابن حجر: "كان الرضا من أهل العلم والفضل مع شرف النسب."[١٤] قال السمعانّي: "والرضا كان من أهل العلم والفضل مع شرف النسب."[١٥] قال الذهبيّ:

" كبير الشأن، له علم وبيان، ووقع في النفوس، صيَّره المأمون ولي عهده لجلالته."[١٦] قال الواقديّ: "سمع عليّ الحديث من أبيه وعمومته وغيرهم، وكان ثقة يفتي بمسجد رسول الله ﷺ، وهو ابن نيِّف وعشرين سنة."[١٧] قال اليافعيّ: " توفّى الإمام الجليل المعظّم سلالة

٩ الصدوق، ١٧٢.
١٠ الصدوق، ١٨٤.
١١ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن. كتاب الأمالي، ط١ (العراق – بغداد: مؤسسة الأهلية، ١٩٦٤)، ٣٥٩.
١٢ الصدوق، عيون أخبار الرضا، ١٧٠.
١٣ الصدوق، ١٥٩.
١٤ العسقلاني، ابن حجر. تهذيب التهذيب ج٧، ط١ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤)، ٣٨٩.
١٥ السمعاني، عبد الكريم بن محمد. الأنساب، تحقيق. عبد الله عمر البارودي (دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٨٨)، ٧٤.
١٦ الذهبي، محمد بن أحمد .سير أعلام النبلاء، تحقيق. شعيب الأرنؤوط وبشار عواد معروف وآخرون، ط٣ (مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥)، ١٢١.
١٧ ابن الجوزي، تذكرة الخواص، تحقيق. عامر النجار، ط١ (بيروت – لبنان: دار العلوم، ٢٠٠٤)، ٣١٥.

السادة الأكارم أبو الحسن عليّ بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر بن زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، أحد الأئمَّة الاثني عشر، أولي المناقب الذين انتسبت الإماميَّة إليهم.."[١٨]

قال ابن حبَّان: "عليّ بن موسى الرضا من سادات أهل البيت وعقلائهم، وأجلَّة الهاشميّين ونبلائهم، ومات عليّ بن موسى الرضا بطوس من شربة سقاه إيَّاها المأمون، فمات من ساعته، وقد زرته مرارًا كثيرة وما حلَّت بي شدَّة في وقت مقامي بطوس فزرت عليّ بن موسى الرضا صلوات الله على جدِّه وعليه ودعوت الله إزالتها عني إلَّا استجيب لي وزالت تلك الشدَّة، وهذا شيء جربته مرارًا فوجدته كذلك، أماتنا الله على محبَّة المصطفى وأهل بيته صلَّى الله عليه وعليهم أجمعين."[١٩]

والمقام يضيق عن الإحاطة بمكارم الإمام الرضا ﷺ وأخلاقه، ولكن ما سلف يؤكِّد ما حظي به الإمام الرضا ﷺ من مكانة وتقدير، وذلك لم يكن من فراغٍ وإنَّما بُني على ما جمع من خلال مناقب جعلته أهلاً ليتبوّأ هذه المنزلة الرفيعة.

المفهومات النظريَّة: سنقف فيها عند أهمِّ المفهومات التي وظَّفها البحث في الدراسة التطبيقيَّة وهي:

الطباق والمقابلة: يُعَدُّ الطباق من المحسِّنات المعنويَّة التي تندرج ضمن فنون البديع، وهو "الجمع بين لفظين مُقابلين في المعنى"[٢٠]، أو "الجمع بين المتضادَّين، أي معنيين متقابلين في الجملة"[٢١]، وما من ريب في أنَّ الجمع بين الأمور المتضادَّة يكسو الكلام جمالًا ويزيده بهاء ورونقاً، فالضِّدُّ يظهر حسنه الضِّدُّ، ولكن وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكليَّة، بل تتعداها إلى غايات أسمى، فلا بدَّ أن يكون هناك معنًى لطيف ومغزًى دقيق وراء جمع الضِّدَّين في إطار واحد، وإلَّا كان هذا الجمع عبثًا وضربًا من الهذيان[٢٢].

١٨ اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان .مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه. خليل المنصور، ط١/ ج٢ (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧)، ١٠.

١٩ ابن حبَّان، الثقات، تحقيق. محمد عبد المعيد خان، ج٨ (بيروت – لبنان: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٣)، ٤٥٦_٤٥٧.

٢٠ الهاشمي، أحمد. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق. يوسف الصميلي، ط١ (صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٩)، ٣٦٦.

٢١ القزويني، جلال الدين محمد. الإيضاح في علوم البلاغة، وضع حواشيه. إبراهيم شمس الدين، ط١ (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ٢٥٥.

٢٢ فيود، بسيوني عبد الفتاح .علم البديع - دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، ط٤ (القاهرة: مؤسسة المحتار للنشر والتوزيع، ٢٠١٥)، ١٣٩.

والطباق والمقابلة يمكن إدراجها تحت عنوان واحد هو التقابل، وهذا ما سنعتمده في بحثنا هذا، "فالمقابلة أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعانٍ متوافقة ثُمَّ بما يقابلها على الترتيب"[٢٣]، وبذلك تخلق المقابلة بنية إيقاعيَّة خاصَّة في النَّصِّ، يطلق عليها الإيقاع التقابليّ أو المعنويّ، أو إيقاع التباين، وهو مختلف عن إيقاع التشابه القائم على التداعيّ اللَّفظيّ في السجع وغيره من المحسِّنات اللَّفظيَّة[٢٤].

الجمع والتفريق والتقسيم: يُعدُّ الجمع والتفريق والتقسيم من الفنون البديعيَّة التي تنهض على بناء علاقات دلاليَّة أو معنويَّة بين أجزاء من الكلام، فالجمع هو أن يجمع المتكلِّم بين متعدِّد تحت حكم واحد، كقوله تعالى:﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(الكهف٤٦)، أمَّا التفريق فهو أن يُفرِّق المتكلِّم بين أمرين من نوع واحد في اختلاف حكمهما، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾(فاطر ١٢)، وأمَّا التقسيم فهو أن يُذكر متعدِّد، ثُمَّ يُضاف إلى كلِّ من أفراده ما له على جهة التعيين، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقَّة ٤-٦). ويمكن القول إنَّ هذه الفنون ترتبط ببعضها، ويتَّضح ذلك من تعريفات البلاغيّين لهذه الفنون[٢٥].

الجناس: أمَّا الجناس فهو فنٌّ بديعيّ يقوم على التماثل الصوتيّ بين الألفاظ، وقد عرّفه البلاغيُّون بالقول: "هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى"[٢٦]، وقد يكون هذا التشابه توافقًا في نوع الحروف، وعددها، وهيئاتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها، فيكون الجناس تامًّا، أمَّا الجناس غير التامّ فهو ما اختلف فيه اللَّفظان في واحد أو أكثر من الأمور الأربعة السابقة[٢٧].

٢٣ فيود، بسيوني عبد الفتاح، علم البديع، ص ١٥٤.
٢٤ الحميداوي، خالد كاظم حميدي. "أساليب البديع في نهج البلاغة - دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية،" إشراف. مشكور كاظم العوادي (جامعة الكوفة، ٢٠١١)، ٩٩.
٢٥ القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ٢٦٩_ ٢٧٤.
٢٦ الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ٣٩٦.
٢٧ الهاشمي، ٣٩٦_ ٣٩٨.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقيَّة في أقوال الإمام عليّ الرِّضا ﷺ:

تتعدَّد أساليب الخطاب في أقوال الإمام الرضا ﷺ، وذلك تبعًا لغايات دلاليَّة وجماليَّة تلقى صداها لدى المخاطَبين، إذ يؤدِّي الأسلوب دورًا مُهمًّا في إيصال الفكرة المرادة من الكلام، ويجمع بين رونق اللَّفظ وعمق المعنى، ومن هنا، تُسهم العلاقات السياقيَّة بين الألفاظ في تعميق الأثر الجماليّ للمعاني، وترفد هذا الأثر بما يدفع المخاطَب نحو تمثُّل هذه المعاني في سلوكه وأفعاله.

ويمكننا أن نقف على شواهد كثيرة في خطب الإمام ﷺ الطويلة، وأقواله القصار، تؤكِّد ما ذهبنا إليه من دور الأسلوب في التأثير لدى المتلقّي، ومن ذلك قوله في تمام عقل المرء المسلم:

"لا يتمّ عقل امرئٍ مسلم حتَّى تكون فيه عشر خصال: الخير منه مأمول، والشرُّ منه مأمون، يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه، لا يسأم من طلب الحوائج إليه، ولا يملّ من طلب العلم طول دهره، الفقر في الله أحبُّ إليه من الغنى، والذُّلُّ في الله أحبُّ إليه من العزِّ في عدوِّه، والخمول أشهى إليه من الشهرة، ثُمَّ قال ﷺ: العاشرة وما العاشرة، قيل له: ما هي؟ قال ﷺ: لا يرى أحداً إلَّا قال: هو خيرٌ منّي وأتقى. إنَّما النَّاس رجلان: رجلٌ خيرٌ منه وأتقى، ورجلٌ شرٌّ منه وأدنى، فإذا لقي الذي هو شرٌّ منه وأدنى قال: لعلَّ خير هذا باطن وهو خيرٌ له، وخيري ظاهرٌ وهو شرٌّ لي. وإذا لقي الذي هو خيرٌ منه وأتقى، تواضع له ليلحق به، فإذا فعل ذلك فقد علا مجده، وطاب خيره، وحسن ذكره، وساد أهل زمانه"[٢٨].

ينهض هذا القول على سمات أسلوبيَّة متنوعة، يستثمرها الإمام ﷺ بما يرفد السياق بعوامل الإقناع، فالغاية هي النصح والإرشاد، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية تتعدَّد الوسائل البلاغيَّة والأسلوبيَّة التي ترقى بالقول إلى مستوى ربط النتيجة بالعلّة، وقد بدأ الإمام ﷺ بذكر النتيجة المجملة (تمام عقل المرء المسلم)، ثُمَّ فصّل هذا الإجمال بخصال عشر، يُسلسلها على حوامل أسلوبيَّة تتباين في أدواتها، ويمكننا تقرّي ملامح هذه الأدوات وفق الآتي:

٢٨ المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٣ (بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣)، ج٧٥/ ص٣٣٦.

ينهج الإمام ﷺ في إيراد الخصال نهجًا قائمًا على التوازي التركيبيّ بين كلِّ خصلتين على التتابع، وهذا أدعى إلى تقرير المعنى في الذهن استنادًا إلى البنية الإيقاعيَّة الناشئة عن هذا التوازي، فانتظام الألفاظ وفق نسق إيقاعيّ متماثل يجعل من المعاني المتولِّدة عنها أقرب إلى الحفظ والاسترجاع، وهذا ما يرومه الإمام ﷺ، ويأخذ هذا التوازي التركيبيّ أشكالاً مختلفة تراعي تنوّع المقال بما يلائم المقام.

تأتي الخصلتان الأولى والثانية على حامل أسلوبيّ خبريّ ابتدائيّ يجتمع فيه المسند والمسند إليه على نحو واضح، مع وجود فاصل بينهما (شبه جملة: جار ومجرور) يعود فيه الضمير المتَّصل بحرف الجرِّ على المرء المسلم: (الخير منه مأمول، والشر منه مأمون). وإذ يستغني هذا الأسلوب الخبريّ عن أدوات التوكيد تبعًا لبداهة الحكم، فإنَّنا لا نعدم اشتماله على حليتين بديعيّتين تجلوان المعنى وتؤكِّدانه، وهما الطباق والجناس، إذ يجتمع الضِّدَّان في لفظتي (الخير والشرّ) لتقرير المعنى في النفس، فلم يكتفِ الإمام ﷺ بالإشارة إلى الخير المأمول، وإنَّما أردفه بالشرِّ المأمون، ليفرد بذلك كلَّ خصلة على حدة، وإن اجتمعتا بالمعنى، ثُمَّ إنَّه يجانس بين لفظتي (مأمول ومأمون) جناسًا ناقصًا باختلاف حرف واحد بينهما، ليخلق جرسًا إيقاعيًّا يرفد القول بأسباب الجمال التركيبيّ الذي يأتي عفو الخاطر، من دون تكلُّف أو إقحام، فيضمن بذلك استجابة المتلقّي للنصيحة تبعاً لجماليَّات طريقة عرضها على المستوى الأسلوبيّ.

ثُمَّ تأتي الخصلتان الثالثة والرابعة ضمن أسلوب المقابلة الذي يجمع بين التماثل والتباين في قول الإمام ﷺ: (يستكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثير الخير من نفسه). فأمَّا التماثل فنابع من التوازي التركيبيّ بين الجملتين (فعل+ فاعل مستتر+ مفعول به مضاف+ مضاف إليه+ شبه جملة: جار ومجرور)، ممَّا يفيد الجمع بين المعنيين على مستوى الحكم المراد من القول، ذلك أنَّ تمام العقل للمرء المسلم يستوجب أن يسكثر قليل الخير من غيره، ويستقلّ كثيره من نفسه في آن واحد، ولا يجوز إفراد واحدة من دون الأخرى. وأمَّا التباين فنابع من اجتماع المعاني المتوافقة في طرف المقابلة الأوَّل، ثُمَّ الإتيان بأضدادها في الطرف الثاني على الترتيب، وعلى الرغم من أنَّ إيقاع التباين المعنويّ يوحي بالاختلاف، لكنَّه يستبطن الائتلاف، إذ يأتلف طرفا المقابلة للإحالة على تمام العقل، وإن اختلفا على المستوى التقابليّ الضِّدِّيِّ، وهذا من لطائف الأسلوب ودقَّة الصياغة.

ثُمَّ تأتي الخصلتان الخامسة والسادسة على التوازي التركيبيّ أيضاً، ولكن بعيدًا عن المطابقة أو المقابلة أو المجانسة، إذ ينزع الإمام ﷺ منزعًا مختلفًا هذه المرَّة، باعتماده أسلوب الترادف في قوله: (لا يسأم من طلب الحوائج إليه، ولا يملّ من طلب العلم طول دهره). إذ يوظِّف الفعلين المترادفين (يسأم، يملّ) ضمن سياق الحثِّ على طلب الحوائج والعلم، وقد جاء هذا الحثُّ بأسلوب النفي في الجملتين، ذلك أنَّ النفي التقريريّ يؤكِّد المعنى ويقوّيه أكثر من التعبير المثبت المباشر، ولو قال الإمام ﷺ: يسعى في طلب الحوائج أو العلم، بدل قوله: لا يسأم ولا يملّ من طلب الحوائج أو العلم، لما أدّى التركيب دوره التقريريّ على النحو الذي لمسناه، فكان التأثير الدلاليّ لأسلوب النفي مشفوعاً بإثبات الحكم، ولكن على نحو أقوى.

يستمرّ التوازي التركيبيّ بالحضور في الخصلات السابعة والثامنة والتاسعة، مع الانتقال إلى أسلوب آخر هو أسلوب التفضيل، وقد تبدّى ذلك في قول الإمام ﷺ: (الفقر في الله أحبُّ إليه من الغنى، والذلُّ في الله أحبُّ إليه من العزِّ في عدوِّه، والخمول أشهى إليه من الشهرة)، إذ يأتي اسم التفضيل بين معنيين، ليرجِّح كفَّة الأوَّل إزاء الثاني، فيميل المتلقّي إلى الفقر في الله، والذلِّ في الله، والخمول، تبعًا لدلالة اسم التفضيل (أحبّ، أشهى)، وينفِّر - في الوقت نفسه - من الغنى والعزِّ والشهرة في الدنيا، وكأنَّ الإمام ﷺ يدعو المسلم العاقل إلى أن يشتري آخرته بدنياه، وقد جاءت هذه الدعوة وفق أسلوب التفضيل لتفعيل المحاكمة العقليَّة لدى المتلقِّي، وجعله يميل إلى ما هو خير وأبقى.

أمَّا الخصلة العاشرة الأخيرة، فقد جاءت مسبوقة بأسلوب الاستفهام الإغرائيّ: (العاشرة وما العاشرة، قيل له: ما هي؟). وقد أدَّى هذا الأسلوب دورًا جماليًّا في إثارة اللهفة لترقُّب هذه الخصلة من جهة، ودعوة مضمرة لتركيز الانتباه عليها لدى المتلقِّي من جهة أخرى، وذلك لأهمِّيَّتِها وخصوصيَّتها (لا يرى أحداً إلَّا قال: هو خيرٌ منّي وأتقى). إذ يدعو الإمام إلى نبذ الكبر والهوى واتِّباع النفس، وتأكيد سمة التواضع في المسلم العاقل، وتتبدَّى أهمِّيَّة هذه الخصلة من خلال الاستفاضة في شرحها، وتعليلها، وبيان مآل مَن يتَّبعها.

يبدأ شرح هذه الخصلة في قول الإمام عليه السلام عبر المزاوجة بين أسلوبي الجمع والتقسيم. فالجمع هو أن يجمع المتكلِّم بين متعدِّد تحت حكم واحد، وهذا ما يتَّضح في قول الإمام عليه السلام: (إنَّما النَّاس رجلان)، أمَّا التفريق فهو أن يُفرِّق المتكلِّم بين أمرين من نوع واحد في اختلاف حكمهما، وهذا ما جاء في قوله: (رجلٌ خيرٌ منه وأتقى، ورجلٌ شرٌّ منه وأدنى). وقد جاء التفريق بعد الجمع في قول الإمام عليه السلام على سبيل الإيضاح والتفصيل بعد إجمال. ويأخذ هذا التفصيل بعدًا تعليليًّا يستفيض فيه الإمام في تحديد موجبات سلوك المسلم العاقل مع غيره من الناس، سواء أكانوا أتقى منه أم كانوا أدنى، فيُحسن الظَّنَّ بمن هو أدنى، ويتواضع لمن هو أتقى. ولترسيخ ذلك كلِّه في النَّفس، يبيِّن الإمام عليه السلام عاقبة هذه الخصلة في قوله: (فإذا فَعَلَ ذلك فقد علا مجدُه، وطاب خيرُه، وحسن ذكرُه، وساد أهلُ زمانِه). ونلحظ في هذه العاقبة اتِّباع أسلوب الإطناب الذي يفيد في تأكيد سمو رتبة هذه الخصلة عن سواها.

يتَّضح لنا من القول السابق تنوّع الأساليب النحويَّة والبلاغيَّة وتعدّدها في كلام الإمام عليه السلام، وقد أفضى هذا التنوّع إلى مقاربة المعاني بأكثر من طريقة، وهذا دليل على مراعاة سياق الحال في الكلام، إذ يختار الإمام لكلِّ معنى ما يناسبه من الأساليب، فيسوق المعاني الثنائيَّة المتقاربة وفق تقنية التوازي التركيبيّ، من دون أن يكرِّر الأسلوب نفسه في المعاني الثنائيَّة الأخرى التي لا تخرج عن هذا التوازي تقنيًّا، ولكنَّها تخرج عنه أسلوبيًّا، فكان التناسب والتماسك مزيتين جماليَّتين لهما الأثر الكبير في استجابة المتلقّي لمضمون الكلام.

ويتواتر أسلوب التقسيم في كلام الإمام عليه السلام، ليحمل معه دلالات التعيين لكلِّ جزء من أجزاء الكلام، وهذا ما نلحظه في قول الإمام عليه السلام:

"لا يكون المؤمن مؤمنًا حتَّى تكون فيه ثلاث خصال: سنَّة من ربِّه، وسنَّة من نبيِّه صلى الله عليه وآله، وسنَّة من وليّه عليه السلام. فأمَّا السنَّة من ربِّه فكتمان السرِّ، وأمَّا السنَّة من نبيّه صلى الله عليه وآله فمداراة الناس، وأمَّا السنّة من وليِّه عليه السلام فالصبر في البأساء والضرّاء"[٢٩].

٢٩ المجلسي، ج٧٥/ ٣٣٤_ ٣٣٥.

يعتمد الإمام عليه السلام أسلوب التقسيم في عرض أفكاره عن خصال المؤمن، والتقسيم أن يُذكر متعدِّد، ثُمَّ يُضاف إلى كلٍّ من أفراد هذا المتعدِّد ما له على جهة التعيين، وهذا ما كان في قول الإمام عليه السلام، فالمتعدِّد قوله في الخصال الثلاث: سنّة من ربِّه، وسنّة من نبيّه صلى الله عليه وآله، وسنّة من وليّه عليه السلام. ثُمَّ يأتي التعيين المُضاف إلى كلِّ خصلة ليوضِّح أبعادها، ويجلو سببها، وهذا ما ورد في كتاب الخصال مفصّلًا [٣٠]، فالسنّة من ربِّه كتمان سِّره، قال الله عزّ وجلّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن ٢٦ - ٢٧). وأمَّا السنّة من نبيّه صلى الله عليه وآله فمداراة الناس، فإنَّ الله عزّ وجلّ أمرَ نبيَّه صلى الله عليه وآله بمداراة الناس فقال: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف ١٩٩). وأمَّا السنَّة من وليِّه فالصبر في البأساء والضراء، فإنَّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء﴾ (البقرة ١٧٧).

لقد أسهم أسلوب التقسيم في تفصيل كلِّ خصلة على حدة، وذلك من خلال التعيين الذي يبيّن المراد، ويقرنه بكلام الله عزّ وجلّ، وبذلك يجمع هذا القول بين النصح والإرشاد من حيث الغاية، والتقسيم والتعيين من حيث الأسلوب، والاستشهاد والتعليل من حيث الاقتباس القرآنيّ. ممَّا يجعل كلام الإمام عليه السلام في ذروة الفصاحة والبلاغة، جمالاً وجلالاً.

ويكثر مثل هذا التفريع أو التفصيل في كلام الإمام عليه السلام، فهو يبدأ كلامه غالبًا بالإجمال، ثُمَّ يعقبه التفصيل، كقوله:

"الإيمان أربعة أركان: التوكّل على الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والتفويض إلى الله"[٣١]. وقوله أيضًا: "لا يستكمل عبدٌ حقيقة الإيمان حتَّى تكون فيه خصالٌ ثلاث: التفقّه في الدِّين، وحُسن التَّقدير في المعيشة، والصَّبر على الرَّزايا"[٣٢].

نلحظ في القولين السابقين اتِّباع الإمام عليه السلام أسلوب التفصيل في عرض الأفكار على نحو يدفع المتلقّي إلى ملاحقة أقسام الكلام، والكشف عن دلالات تقسيمها أو اجتماعها، وارتباط ذلك بصدر القول، فالقول الأوَّل يبيِّن أركان الإيمان، والثاني يفصِّل خصال العبد لاستكمال

٣٠ الصدوق، محمد بن علي بن الحسين. الخصال، صححه وعلق عليه. علي أكبر الغفاري (قم المقدسة: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٤٠٣هـ)، ٨٢.

٣١ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥/ ٣٣٨.

٣٢ الحراني، ابن شعبة الحسن بن علي. تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، ط٢ (قم المقدسة: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٤٠٤هـ)، ٤٤٦.

حقيقة الإيمان، ويمكننا أن نلحظ التَّرابط العضويّ بين الأركان في القول الأوَّل، فالتوكُّل يوجب الرضا، والرضا يستدعي التسليم، والتسليم يفضي إلى التفويض، أمَّا القول الثاني فنلحظ فيه التدرُّج في الخصال، من التفقُّه في الدين، إلى حسن التقدير في الدنيا، ثُمَّ الصبر على المصائب الذي يجمع بين الدين والدنيا. وهكذا، فإنَّ التفصيل يحيط بالمعنى المراد إحاطة تامَّة، ويؤدِّي الغاية التي يرومها الإمام ﷺ في الإبانة عن الأحكام الشرعيَّة والسلوكيَّة المتعلّقة بالإيمان.

ويندرج الإيجاز ضمن فنون البلاغة في كلام الإمام ﷺ، إذ تأتي بعض أقواله من دون فائض لفظيّ أو زيادة غير مفيدة، فيكون التعبير عن الفكرة بأقلِ عدد من الكلمات، كقوله ﷺ: "صديقُ كلِّ امرئٍ عقلُه، وعدوُّه جهلُه"[٣٣].

يُعلي الإمام ﷺ من شأن العقل بوصفه صديقاً للمرء، فالصديق يصدُق صديقه، وهذا هو دور العقل الذي ينير ظواهر المعارف وبواطنها، ويسير بصاحبه نحو اليقين بوساطة التفكُّر والتدبُّر، وعليه يكون الجهل عدوًّا للمرء، وقد جاء الطباق بين (الصديق والعدوّ) ليفعّل دور المحاكمة المنطقيَّة عند المتلقّي، إذ يُفاضل بين الضِّدَّين، ويميل إلى ما ينفعه، وهو العقل / الصديق، وينفر ممَّا يورده المهالك، وهو الجهل / العدو، وقد جاء التعبير عن هذه الفكرة موجَزًا، من خلال الأسلوب الخبريّ الابتدائيّ الذي يجمع بين طرفي الإسناد من دون أدوات التوكيد، ذلك أنَّ هذا القول لا يحتمل الشكَّ والريب، ولا يحتاج إلى برهان أو حجَّة، ولذلك أورده الإمام ﷺ على هذا النحو القاطع، معتمدًا التشخيص الاستعاريّ بوصفه أسلوبًا بلاغيًّا يقرّب الفكرة الذهنيَّة المجرّدة إلى الفهم، فاستعار الصديق للعقل، والعدوّ للجهل، ومزج بين المحسوس والمجرّد، ليخرج لنا بحكمة تلقى أثرها الجماليّ في نفوس الناس، وتتجسّد في سلوكهم.

ونجد مثل هذا الإيجاز في قولٍ آخر للإمام ﷺ، وكان قد "سُئِل عن خيار العباد؟ فقال ﷺ: الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا، وإذا أُعطوا شكروا، وإذ ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا عفوا"[٣٤].

تكشف المواقف حقيقة العباد، وتميّز خيارهم من شرارهم، وقد عبَّر الإمام ﷺ عن ذلك

٣٣ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥/ ٣٣٥.
٣٤ المجلسي، ج٧٥/ ٣٣٨.

بكلمات موجزة، فعرض خمسة مواقف يتميّز بها خيار العباد، مختصرًا كلَّ موقف بفعلين، يعقب أحدهما الآخر، فالاستبشار لاحق للإحسان عندهم، والاستغفار تابع للإساءة إذا حصلت منهم، وهم يُلحقون الشكر بالعطاء الواقع عليهم، ويصبرون على الابتلاء، ويعفون عند الغضب، واجتماع هذه الصفات يرقى بالعبد في دنياه وآخرته. ويأتي اقتران الفعلين في كلام الإمام ﷺ من دون فاصل بينهما، أو شرح يعقبهما، لغاية دلاليَّة وجماليَّة، فالغاية الدلاليَّة هي التركيز على الموقف، والغاية الجماليَّة هي الإيجاز البلاغيّ، فيكون الكلام بذلك مناسبًا للتعبير عن الفكرة، ودافعًا للأخذ بأسبابها.

إنَّ التناسب بين الحكم الشرعيّ أو السلوكيّ وأسلوب التعبير عنه سمة دائمة في كلام الإمام ﷺ، فهو يختار من الأساليب أوقعها في النفس، وأكثرها تأثيرًا في المخاطَب، وهذا ما يجعله يعتمد أسلوب النفي توخيًّا للإثبات في بعض كلامه، كقوله ﷺ: "ليس العبادة كثرة الصيام والصلاة، وإنَّما العبادة كثرة التفكُّر في أمر الله"[٣٥].

لقد أراد الإمام ﷺ إثبات حقيقة العبادة، فقدَّم في البداية أسلوب النفي؛ ليمهِّد السبيل أمام الفكرة الرئيسة التي تعبِّر عن ذلك، ثُمَّ أتبعه بأسلوب القصر الذي يُعلي من شأن كثرة التفكّر في أمر الله، فهذا التفكُّر هو جوهر العبادة؛ لأنَّه يقود العبد إلى اليقين الراسخ، أمَّا الصيام أو الصلاة من دون تفكُّر أو تدبُّر، فإنَّه لا يعدو أن يكون التزامًا شكليًّا لا يعبِّر عن حقيقة العبادة كما يؤكِّد الإمام ﷺ، ولا يُفهم من كلامه أنَّ هذين الركنين ليسا من موجبات العبادة، ولكن المقصود أنَّهما – من دون التفكُّر في أمر الله – لا يعبِّران عن حقيقة العبادة، فالصلاة ليست حركات آليَّة خالية من الخشوع، والصيام ليس انقطاعًا مؤقتًا عن الطعام والشراب وحسب، وإنَّما هما معًا ميدان واسع لهذا التفكُّر.

ويتكرَّر أسلوب النفي الدالّ على الإثبات في قولٍ آخر للإمام ﷺ، وذلك ضمن سياق الحديث عن العبادة أيضًا، إذ يقول:

٣٥ المجلسي، ج٧٥/ ٣٣٥.

"لا يكونُ الرجلُ عابداً حتَّى يكونَ حَلِيماً، وإنَّ الرجلَ كان إذا تَعَبَّدَ في بني إسرائيلَ لَمْ يُعَدَّ عابداً حتَّى يَصْمُتَ قَبْلَ ذلكَ عَشْرَ سنين"[٣٦].

يريد الإمام ﷺ تأكيد فكرة مفادها أنَّ الحلم سمة ملازمة للرجل العابد، فاختار أسلوب النفي لتأكيد الفكرة، إذ ينفي صفة العابد عن الرجل إذا لم يكن حليمًا، وقد أدّى هذا الأسلوب وظيفته السياقيَّة بفاعليَّة أقوى من قولنا: الرجل العابد حليم. ثُمَّ يدعم الإمام ﷺ هذه الفكرة عبر أسلوب التمثيل، فيضرب للمخاطبين مثلاً عن بني إسرائيل، يؤكِّد فيه ما ذهب إليه، ذلك أنَّ الصمت عن المكاره من صفات الحليم، وبه يكون المرء جديراً بصفة العابد، وهذا هو المقصود من المثل، وهكذا يتعاضد أسلوبًا النفي والتمثيل في الإحالة على فكرة اقتران العبادة بالحلم، وتقريرها في ذهن المتلقِّي.

ومثل ذلك كلامه ﷺ وقد سُئل عن القناعة، فقال:

"ولا يَسْلُكُ طريقَ القناعة إِلَّا رجلان: إِمَّا مُتَعَلِّلٌ يُريدُ أَجْرَ الآخرة، أو كريمٌ مُتَنَزِّهٌ عن لِئَامِ النَّاس"[٣٧].

يجمع الإمام ﷺ في هذا القول مجموعة من الأساليب، تبدأ بأسلوب النفي المندرج في سياق أسلوب القصر، فهو يقصر السير في طريق القناعة على رجلين، ثُمَّ يعمد إلى أسلوب التقسيم على سبيل التعيين، فالرجل الأوَّل متعلِّل يريد أجر الآخرة، وهذا دليل على صحَّة الدِّين والسعي نحو الثواب، والرجل الثاني كريم متنزّه عن لئام الناس، وهو بذلك يعصم دنياه من الخوض في سفاهة القول ومعاشرة اللِّئام، وقد أدَّى اجتماع هذه الأساليب دورًا مهمًّا في إيضاح فكرة القناعة، وبيان موجبات الأخذ بها، وكأنَّ الإمام ﷺ يدعو إليها على نحو غير مباشر، فيذكر صفات الرجل السالك طريق القناعة؛ ليغري المخاطَبين باقتفاء أثر هذا السالك، سواءٌ أكانت الغاية صلاح الدين أم صلاح الدنيا، فكيف إذا اجتمعا معاً؟

ولا نعدم وجود الشرح المرافق للكلام عند الإمام ﷺ في بعض أقواله، فهو يرفد الكلام أحياناً بأسباب الوضوح على سبيل الإقناع، كقوله ﷺ لأبي هاشم الجعفريّ:

---

٣٦ الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق. الكافي، ط٤ (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧)، ج٢/ ١١١.
٣٧ الإربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ط١ (تبريز: منشورات بني هاشمي، ١٤٢٣هـ)، ج٢/ ٣٠٦_ ٣٠٧.

"يا أبا هاشم، العقل حِباء من الله، والأدب كُلفة؛ فمن تكلَّف الأدب قدر عليه، ومن تكلَّف العقل لم يزدد بذلك إلَّا جهلًا"[٣٨].

يذهب الإمام ﷺ إلى أنَّ العقل عطية من الله ﷻ، أمَّا الأدب فكُلفة من الإنسان، ثُمَّ يشرح الفرق بين الأمرين مبيّنًا تجلِّيات ذلك في السلوك الإنسانيّ، والمراد أنَّ العقل غريزة موهوبة من الله ﷻ، فهو في فطرة الإنسان وجبِلَّته، وليس للكسب فيه أثر، فمن لم يكن فيه عقل ليس له صلاحيَّة اكتساب العقل، بخلاف الأدب، فإنَّ الأدب هو السيرة والطريقة الحسنة في المحاورات والمعاشرات، ويمكن للإنسان تحصيله بأن يتجشَّمه ويتكلَّفه[٣٩]. وبذلك يشتمل كلام الإمام ﷺ على الأسلوب التقريريّ المتبوع بالتعليل المنطقيّ، وهذا الاشتمال أدعى إلى حسن الفهم من جهة، ويراعي سياق حال المخاطب من جهة أخرى.

ويكثر مثل هذا التعليل في أسلوب الأمر الإنشائيّ في أقوال الإمام ﷺ، فهذا الأسلوب هو السبيل للنصح والإرشاد تبعًا للمعاني الثواني التي يشفّ عنها السياق، وهذا ما نجده في قوله ﷺ:

"أكثِروا من الصلاة على مُحَمَّد وآله ﷺ، والدعاءِ للمؤمنين والمؤمنات في آناء اللّيل والنهار؛ فإنَّ الصلاة على مُحَمَّد وآله أفضل أعمال البرّ، واحرصوا على قضاء حوائج المؤمنين وإدخال السرور عليهم ودفع المكروه عنهم، فإنَّه ليس شيء من الأعمال عند الله ﷻ بعد الفرائض أفضل من إدخال السرور على المؤمن"[٤٠].

يستدعي المقام أو سياق الحال أسلوبًا بلاغيًّا يناسبه، فالمقام هو مقام التوجيه والنصح والإرشاد، ومن هنا يأتي أسلوب الأمر الإنشائيّ ليناسب هذا المقام، ويحمل معه دلالات التوجيه نحو ما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، وقد جاء الأمر للجماعة (أكثروا، احرصوا)؛ للدلالة على إعمام الخطاب، كما جاء مشفوعًا بأسباب الأخذ بموجبات الأمر، فكثرة الصلاة على مُحَمَّد وآله ﷺ أفضل أعمال البرّ، والحرص على قضاء حوائج المؤمنين وإدخال السرور عليهم من أفضل الأعمال عند الله ﷻ بعد الفرائض، وهكذا، لا يكتفي الإمام ﷺ بتوجيه الأمر، وإنَّما يعقبه بما يدفع إلى اتِّباعه، والاستجابة له، إذ يعي الإمام ﷺ ميل النفس البشريَّة

٣٨ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥/ ٣٤٢.
٣٩ المجلسي، ج٧٥/ ٣٤٢.
٤٠ الإمام الرضا ﷺ، الفقه المنسوب للإمام الرضا ﷺ، تحقيق. مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، ط٢ (بيروت، ٢٠١٠)، ٣٣٩.

إلى التعليل والتفسير في الأوامر والنواهي؛ لأنَّ ذلك يُحدث الاستجابة عن قناعة وبيّنة، وقد راعى الإمام ﷺ سياق أحوال المخاطَبين، فألزمهم تنفيذ الأمر تبعًا لمعرفتهم بفضائله عند الله ﷻ، وكان إرشاده لهم مقرونًا بالأسباب الموجبة للأخذ بالأمر.

ومثل ذلك أسلوب النهي الإنشائيّ، فإنَّه متبوعٌ غالبًا بما يعلّله أو يوضِّحه، وهذا ما نجده في قول الإمام ﷺ:

"لا تدعوا العملَ الصالح، والاجتهاد في العبادة، اتِّكالاً على حُبِّ آل مُحَمَّد ﷺ، ولا تدعوا حُبَّ آل مُحَمَّد ﷺ، والتسليم لأمرهم، اتِّكالاً على العبادة، فإنَّه لا يُقبل أحدهما دون الآخر"[٤١].

ينهى الإمام ﷺ محبّي آل مُحَمَّد ﷺ عن ترك العمل الصالح والعبادة، كما ينهى العابدين عن ترك حُبِّ آل مُحَمَّد ﷺ، فيتّكلون في نجاتهم وخلاصهم على أمر واحد من دون الآخر (الحبّ أو العبادة)، ويعلِّل الإمام ﷺ هذا النهي المزدوج بجملة خبريَّة طلبيَّة يُصدِّرها بأداة التوكيد (إنَّ) على سبيل إزالة الريب أو الشَّكِّ عن هذا الحكم الشرعيّ، فإنَّه لا يُقبل أحدهما دون الآخر، وهكذا يوظّف الإمام ﷺ أسلوب النهي الإنشائيّ ليؤدِّي دلالة النصح والإرشاد، مبيّنًا السبب الداعي إلى الالتزام بمضمون النهي، وذلك عبر أسلوب الخبر الطلبيّ المؤكَّد، ليؤدِّي هذا الأسلوب وظيفته الدلاليَّة التي تعزِّز الحكم وترسِّخه في الأذهان.

ويجتمع الأسلوبان معًا، مع التعليل، في قول الإمام ﷺ:

"واتّقوا الله، وقولوا قولاً سديدًا، يصلح لكم أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ويدخلكم جنَّات تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيِّبة في جنَّات عدن، ولا يفوتكم خير الدنيا، فإنَّ الآخرة لا تُلحق، ولا تُنال إلَّا بالدنيا"[٤٢].

تجد الأوامر والنواهي طريقها الصحيح إلى السلوك الإنسانيّ إذا كانت مشفوعةً بما يبيِّن عاقبتها، ومن هنا يأتي الأمر بتقوى الله، وسداد القول، متبوعًا ببيان العاقبة في كلام الإمام ﷺ، فعاقبة الأمر الفوز في الدنيا والآخرة، من صلاح الأعمال، وغفر الذنوب، ودخول الجنَّة، وإذ ينهى الإمام ﷺ عن فوات خير الدنيا، فذلك لأنَّ الفوز بالآخرة، ونيل الثواب فيها،

٤١ الإمام الرضا ﷺ، ٣٣٩.
٤٢ الإمام الرضا ﷺ، ٣٣٩.

لا يكـون إلَّا بالعمـل الصالـح في الدنيـا. وهكـذا، يراعـي الإمـام سـياق الحـال لـدى المخاطَبـين، فيعتمـد الأسـلوب الإنشـائيّ في الأوامـر والنواهـي، ويزجـي مـن خلالـه النصيحـة والإرشـاد لهـم، ثُـمَّ يعقـب ذلـك ببيـان العاقبـة، وهـذا أدعـى إلى الاسـتجابة والقبـول بالأمـر أو النهـي.

ويـبرز الأسـلوب الحجاجـيّ في كلام الإمـام ﷺ في مجالـس المناظـرات والنقاشـات، فمثـل هـذه المجالـس تسـتدعي إيـراد الحجَّـة، ودفـع الشـبهة، وهـذا مـا نجـده في ردّه عـلى سـؤال الفضـل بـن سـهل في مجلـس المأمـون، حيـث قـال:

"يـا أبـا الحسـن، النَّـاسُ مُجْبَرُون، فقـال اللهُ أَعْـدَلُ مِـنْ أن يُجْبِرَ ثُـمَّ يُعَـذِّبَ. قـال فَمُطْلَقُـونَ، قـال اللهُ أَحْكَـمُ مِـنْ أن يُهْمِـلَ عَبْـدَهُ وَيَكِلَـهُ إلى نَفْسِـهِ"[٤٣].

ينفـي الإمـام ﷺ القـول بالجـبر، ويُدلِّـل عـلى ذلـك بقولـه إنَّ الله أعـدل مـن أن يُجـبر الإنسـان عـلى أمـرٍ ثُـمَّ يُعذِّبـه عليـه، ثُـمَّ ينفـي الإمـام ﷺ القـول بالإطـلاق، وحجَّتـه في ذلـك أنَّ الله أحكـم مـن أن يُهمـل عبـدَه ويتركـه مـن دون هدايـة، وبذلـك فـإنَّ طاعـة الله لا تكـون بالجـبر والإكـراه، كـما أنَّهـا لا تكـون مـن العبـد بإطـلاق، وإنَّـما تـأتي الطاعـة مـن تيسـير الله سـبيل الهدايـة أمـام العبـد، فتكـون طاعتـه عـن معرفـة، وبذلـك فـإنَّ الله ﷻ لا يُهْمِـل عبـدَه، ولا يُجـبره، مـع قدرتـه عـلى ذلـك، وهـذا الأمـر فيـه حكمـة مـن الله ﷻ، وقـد جـلا الإمـام ﷺ هـذه الحكمـة بأسـلوب حجاجـيّ لا يخلـو مـن المنطـق في العـرض، والدليـل في الـرَّدِّ.

الخاتمة:

وهكـذا، كان الإمـام الرضـا ﷺ مـن رجـال الحـقِّ قـولاً وفعـلاً، تميّـز بسـيرةٍ شريفـة، وقـد حافـظ وتمسَّـك بمـكارم الأخـلاق رغـم الظـروف الاجتماعيَّـة والتجاذبـات السياسـيَّة آنـذاك، كذلـك تنوّعـت أسـاليب الخطـاب في كلام الإمـام الرضـا ﷺ، فهـو يختـار لـكلِّ فكـرة، أو حكـم شرعـيّ، أو توجيـه سـلوكيّ، مـا يناسـبه مـن الأسـاليب، مراعيًـا في ذلـك مقـام الخطـاب، وسـياق الحـال عنـد المخاطَبـين، وهـذا مـا أورث كلامـه جمـال الأسـلوب، وقـدرة التأثـير، وحسـن الإفهـام، في آنٍ واحـد.

٤٣ الإربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢/ ٣٠٦.

المصادر

القرآن الكريم

ابن الجوزي. تذكرة الخواص. تحقيق عامر النجار. ط١. بيروت – لبنان: دار العلوم، ٢٠٠٤.

ابن حبان. الثقات. تحقيق مُحَمَّد عبد المعيد خان. ج٨. بيروت – لبنان: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٣.

الإربلي. كشف الغمة. تحقيق جعفر السبحاني التبريزي. ج٣. طهران – إيران: دار الطباعة كربلائي مُحَمَّد حسين الطهراني، ١٨٧٧.

الإربلي . كشف الغمة في معرفة الأئمة. ط١. تبريز: منشورات بني هاشمي، ١٤٢٣هـ.

الإمام الرضا ﷺ. الفقه المنسوب للإمام الرضا ﷺ. تحقيق مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث. ط٢. بيروت، ٢٠١٠.

الحراني، ابن شعبة الحسن بن علي. تحف العقول عن آل الرسول ﷺ. ط٢. قم المقدسة: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٤٠٤هـ.

الحميداوي، خالد كاظم حميدي. "أساليب البديع في نهج البلاغة - دراسة في الوظائف الدلالية والجمالية." إشراف مشكور كاظم العوادي. جامعة الكوفة، ٢٠١١.

الذهبي، مُحَمَّد بن أحمد. سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب وآخرون معروف، بشار عواد الأرنؤوط. ط٣. مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥.

السمعاني، عبد الكريم بن مُحَمَّد. الأنساب. تحقيق عبد الله عمر البارودي. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٨٨.

الصدوق، أبو جعفر مُحَمَّد بن علي. عيون أخبار الرضا.تحقيق حسين الأعلمي. ج١. طهران – إيران: المطبعة الحيدرية، ١٢٧٥هـ.

الصدوق، مُحَمَّد بن علي بن الحسين. الخصال. صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري. قم المقدسة: منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٤٠٣هـ.

الطبرسي، الفضل بن الحسن. إعلام الورى بأعلام الهدى. ط١ / ج١. طهران – إيران: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، ١٤١٧هـ.

الطوسي، أبي جعفر مُحَمَّد بن الحسن. كتاب الأمالي. ط١. العراق – بغداد: مؤسسة الأهلية، ١٩٦٤.

العسقلاني، ابن حجر. تهذيب التهذيب ج٧. ط١. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤.

القزويني، جلال الدين مُحَمَّد. الإيضاح في علوم البلاغة. وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين. ط١. بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.

الكليني، مُحَمَّد بن يعقوب بن اسحاق. الكافي. ط٤. طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٧هـ.

المجلسي، مُحَمَّد باقر. بحار الأنوار.تحقيق مُحَمَّد مهدي الخرسان، إبراهيم الميانجي، و مُحَمَّد باقر البهبودي. ط٣/ ج٩٩. إيران – طهران: مؤسسة دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٣هـ.

المجلسي، مُحَمَّد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار. ط٣. بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣.

المفيد، مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن نعمان العكبري. الإرشاد. ط١/ ج٢. إيران – طهران: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٢.

الهاشمي، أحمد. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي. ط١. صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٩٩.

اليافعي، أبو مُحَمَّد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. وضع حواشيه خليل المنصور. ط١/ ج٢. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.

فيود، بسيوني عبد الفتاح. علم البديع - دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع. ط٤. القاهرة: مؤسسة المحتار للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.